

الإمبراطور خلف المهجر !!

رحل الإمبراطور الياباني (هيرو هيتو) عن دنيانا في يناير ١٩٨٩ وانقضت بوفاته ستون عاما حظيت خلالها الدراسات البيولوجية البحرية برعايته السامية ، فقد كان الإمبراطور الراحل مولعا بدراسة الكائنات البحرية بصفة عامة ، ويميل - بصفة خاصة ، وعلى نحو مثير للدهشة - إلى الاهتمام بمجموعة من الكائنات البحرية الدقيقة التي لا يكاد يلتفت إليها أحد ؛ فهي - من وجهة النظر الاقتصادية - عديمة القيمة .

وقد ولد (هيرو هيتو) في عام ١٩٠١ ، وكانت اليابان وقتها وبصفتها مجموعة من الجزر ، تشهد انتعاشا ملموسا للبحث العلمي في مجال المسامك وغيرها من الدراسات المتصلة بالأحياء البحرية ، بالرغم من أن بداية هذه الاهتمامات العلمية لم تكن بعيدة - فقبل هذا التاريخ بثلاثين سنة فقط ، لم يكن هناك أى اهتمام بعلوم البحار ، بل لم تكن هناك أية مؤشرات على الاهتمام بالعلم عامة ، وأكثر من ذلك فإن الحالة العامة للبلاد لم تكن توحى بأى أمل في أن تجد العلوم في اليابان وطنا لها ، فقد تقلصت قوة الإمبراطور ، منذ القرن الثاني عشر ، وأصبح الحكام

الحقيقيون سلسلة من السادة الإقطاعيين - (شوجان) - توزعت بينهم السلطة المطلقة ، واتسم عصرهم بالانعزالية ، وكانت كل صلة اليابان بالعالم الخارجى تتمثل فى علاقات تبادل تجارى محدود مع بعض التجار والمغامرين البرتغاليين والأسبان .

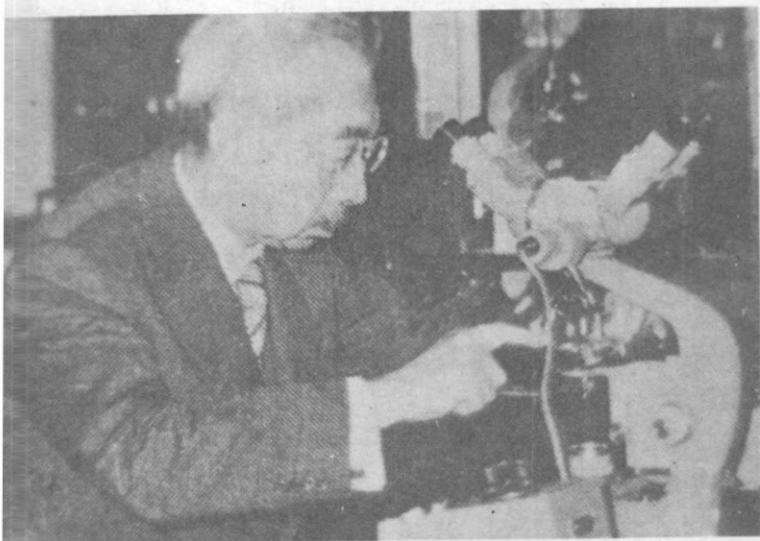
وفى عام ١٦٣٩ ، قطعت هذه الصلة الضئيلة بقرار من الشوجان الحاكم ، فأحكمت أسوار العزلة ، وأصبحت اليابان بالنسبة للعالم الخارجى ، ولمدة مائتى عام ، علامة استفهام كبيرة ، وكانت أى معلومات عن اليابان يحصل عليها الأوروبيون ، تأخذ صفة السحر ويحيط بها الغموض : إلى أن تمكن طبيب ألمانى يدعى (انجلبرت كيمبير) من زيارة اليابان فى فترة عزلتها التامة عن العالم ، واستمرت الزيارة لمدة سنتين - من عام ١٦٩٠ إلى عام ١٦٩٢ - وأثمرت كتابا نشر فى عام ١٧٢٧ بعنوان : (تاريخ اليابان) ، وفيه إشارات إلى بعض الأحياء البحرية اليابانية الغريبة .

وكانت تلك الإشارات بداية لجهود تالية ومبادرات فردية قام بها بعض العلماء الألمان والهولنديين ، فجمعوا نماذج من الكائنات الحية ، حيوانية ونباتية وبرية وبحرية ، وقاموا بوصفها وتسجيلها ، وهكذا بدأت دراسات التاريخ الطبيعى فى اليابان فى غياب اليابانيين أنفسهم .

وفى عام ١٨٦٧ ، تنازل آخر سلسلة الـ (شوجان) عن سلطته ، فاسترد الإمبراطور (متسوهيتو) - جد الإمبراطور هيروهيتو - وضعه

كحاكم حقيقى للبلاد ، وبدأ يفتح أبواب اليابان لتدخل منها (رياح الغرب) محملة ببذور الثقافة والعلم والصناعة ، ووجدت هذه البذور أرضاً خصبة فى اليابان بعد رقودها الطويل فى ظلام العزلة ، وأقبل اليابانيون يمتصون هذه المعطيات بسرعة مذهلة .

وفى عام ١٨٧٥ ، زارت سفينة الأبحاث البريطانية الشهيرة « المتحدة » سواحل اليابان ، كجزء من رحلتها العلمية الرائدة لدراسة المحيطين الهادى والهندي ، والتي استمرت لمدة ثلاث سنوات ونصف (١٨٧٢ - ١٨٧٦) ، وخلال توقف السفينة فى اليابان ، دعى طاقمها من العلماء والضباط إلى حفل استقبال رسمى بالقصر الإمبراطورى ، وكان واضحاً أن ذلك الإمبراطور المتفتح يريد من وراء هذا الاستقبال لعلماء السفينة المتحدة أن يثير اهتمام اليابانيين ويشعل حماسهم لدراسة علوم البحار - وقد جذبت نتائج رحلة السفينة المتحدة لليابان بعثات علمية أخرى جاءت من السويد وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية لارتياح واستكشاف تلك المياه المجهولة المحيطة بالجزر اليابانية ، فكانت بمثابة دفعات إضافية أدت مع نهاية القرن التاسع عشر ، إلى أن يكون لليابان علماءؤها المتميزون فى مختلف علوم البحار ، والجدير بالذكر ، أن بداية دراسات الأحياء البحرية فى اليابان ارتبطت بالأسماء الاقتصادية والمسامك اليابانية ، وفى عام ١٨٨٩ أنشئت كلية خاصة للمسامك ، هى التى تطورت فيما بعد لتكون جامعة طوكيو للمسامك .



الإمبراطور اليابانى الراحل هيروهيتو .. خلف مجهر الأبحاث فى مختبره
بالقصر الإمبراطورى ! .

ولم تلبث الدراسات الخاصة بالأحياء البحرية الأقل أهمية من
الأسماك أن لقيت الاهتمام المناسب بها ، على يد الأمير (هيروهيتو)
ذى السبعة عشر عاما ، فخلال جولة تأملية على شاطئ مقاطعة
(سوروجا) ، عثر « هيروهيتو » على عينة من نوع غريب من
الجمبرى ألقت به الأمواج على الرمال ، فحمل الأمير العينة ،

وعرضها على أحد الأخصائيين الذى أكد على أنها جديدة تماما ، ولم يسبق وصفها ولا تسجيلها فى مجموعة القشريات اليابانية ، وقد أعطى ذلك النموذج من الجمبريات اليابانية اسما جديداً يحمل معنى إمبراطورياً (Sympasiphaea imperialis) تخليداً لذكرى اكتشافه على يد الأمير « هירו هيتو » الذى أصبح ولياً للعهد .

ولعل بداية اهتمام « هירו هيتو » بالحياة فى البحر كانت قبل حدوث هذه المشاركة فى تسجيل نوع الجمبرى الجديد ، ولكن تلك الحادثة - بلا شك - عمقت لديه ميوله العلمية ، وجعلته يخطو خطوة مؤثرة فى هذا المجال ، وهكذا لم يكن غريباً أن يطلب ولى العهد اليابانى إنشاء وتجهيز مختبر للدراسات البيولوجية البحرية خاصاً به داخل القصر الإمبراطورى فى طوكيو ، وكان له ما أراد ، وحصل على مختبره فى عام ١٩٢٥ ، وقبل عام واحد من خلافة لأبيه الإمبراطور (تايشو) .

وبداً « هירו هيتو » نشاطه العلمى على الفور ، متوزعاً بين جولات شاطئية لجمع النماذج والعينات من ساحل خليج (ساجامى) ، على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب من العاصمة ، وبين أعمال الفحص والدراسة بالمختبر ولعل بعض المحيطين به كانوا يعتقدون أن مشاغل الحكم ومقتضيات السلطة كفيلة بأن تنسى « هيرو هيتو » ميوله العلمية ، بعد أن أصبح إمبراطوراً لليابان ، ولكن الإمبراطور لم يكن لينسى اهتماماته العلمية التى أصبحت

جزءاً من شخصيته ، بل كان ينتهز أى فرصة ليتخلص من هموم الحكم ويلجأ إلى مختبره ، وكان حريصاً - ما لم يكن هناك من شئون البلاد ما يشغله تماماً - على أن يخصص ساعات فى آخر النهار ، يومين أو ثلاثة أيام فى الأسبوع ، ليهرع إلى مختبره ويواصل فحص وتأمل كائناته البحرية الأثيرة - الهيدرا .

ولا نعتقد أن أحداً يستطيع أن يفسر سر انجذاب الإمبراطور إلى هذه المجموعة من حيوانات الهيدرا البحرية ، إنها كائنات دقيقة قريبة الصلة بحيوانات الشعاب المرجانية وشقائق النعمان البحرية والأسماك الهلامية ، وقد يحسبها غير المتخصص من النباتات ، فهى تنمو وتتفرع ، فى صورة شبيهة بالسرخسيات ، فوق الصخور وعلى الأصداف وملتصقة بالطحالب البحرية ، وتكاثر هذه الحيوانات بدون تزاوج ، فتنبت وحدات صغيرة تسمى (الميدوزا) ، تشبه الأسماك الهلامية ، ولها القدرة على السباحة ، وتنحصر مهمة هذه الميدوزات فى إنتاج الأمشاج الذكرية والأنثوية فى الماء ، وما إن تتكون الأجنة حتى تأخذ فى التحور لبعض الوقت ، وتترك الحياة الطليقة فى الماء ، وتتجه إلى أقرب سطح مناسب لتلتصق به مكونة أفراداً جددًا من الهيدرا .

وم يحاول الإمبراطور اليابانى أن يخفى جهود بعض علماء البيولوجيا البحرية اليابانيين الذين تتابعوا على مساعدته ، قبل اكتساب الخبرة العلمية والعملية الكافية لأن تجعله يتابع المسيرة

وحده ، وكانت سنة ١٩٦٧ نهاية فترة الاحتياج للمساعدة ، فقد بدأ الإمبراطور « هيرو هيتو » ، بعدها ، ينشر سلسلة من المقالات العلمية تحمل اسمه دون مشارك ، وقد توجت هذه السلسلة ببحث متميز عن حيوانات الهيدرا فى مياه خليج (ساجامى) نشره الإمبراطور فى أغسطس ١٩٨٨ .

ولا يجد علماء البيولوجيا البحرية ، فى اليابان أو خارجها أدنى حرج ، ولا تحوم حولهم أدنى شبهة نفاق ، حين يؤكدون على القيمة العلمية الكبيرة لدراسات وأبحاث الإمبراطور اليابانى الراحل « هيرو هيتو » ، فقد كان له السبق فى وصف وتسجيل عدد غير قليل من أنواع الهيدرا البحرية ، بالإضافة إلى ذلك ، فقد شجع الإمبراطور « هيرو هيتو » عددًا من علماء البيولوجيا البحرية اليابانيين والأجانب ، وسمح لهم بدراسة مقتنياته من النماذج والعينات التى جمعها بنفسه من خليج ساجامى ، واشتملت على الرخويات والقشريات والجلد شوحيات وغيرها من مجموعات الكائنات البحرية .

وكان الاهتمام العلمى لا يفارق الإمبراطور حتى فى رحلاته الخارجية القليلة . وقد قضى « هيرو هيتو » ثمانية عشر يوما فى زيارة لبعض الدول الأوروبية خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٧١ ، وكان الإمبراطور حريصًا ، عند وصوله إلى لندن ، على زيارة متحف التاريخ الطبيعى الشهير ، حيث أهدها علماء المتحف

مجموعة من الشرائح المجهرية التى تحتوى على عينات من كل الأنواع الإنجليزية من كائنات الهيدرا البحرية ، وأثناء وجوده فى إنجلترا ، منح الإمبراطور « هيو هيتو » درجة الزمالة من الجمعية الملكية بلندن ، وهى درجة فخرية تمنح للعلماء الذين يسهمون فى تقدم العلوم .

كما زار « هيو هيتو » الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٧٥ ، وبعد انتهاء المقابلات والحفلات الرسمية ، دعى إلى زيارة معهد سميثسونيان ، والتقى ببعض علماء المعهد المتخصصين فى البيولوجيا البحرية ، وأهدى نموذجاً لنوع نادر من رخويات البحر الكاريبى - والجدير بالذكر ، أن الإمبراطور الجديد (أكيهيتو) قد خلف والده أيضاً فى الاهتمام بعلوم البحار البيولوجية ، غير أن الابن يختلف عن أبيه فى ميله إلى دراسة مجموعة من الأسماك شديدة التنوع تعيش فى المياه الضحلة وعند مصبات الأنهار ، هى أسماك الـ (جوبى) ، وقد نشر « أكيهيتو » العديد من الأبحاث حول هذه الأسماك فى بعض المجلات العلمية . بقيت ملاحظة جديدة بالالتفات إليها ، وهى أن أسماك الجوبى التى حظيت باهتمام الإمبراطور الابن تشترك مع كائنات (الهيدرا) - هوى الإمبراطور الأب - فى ضالة ، بل انعدام ، القيمة الاقتصادية . فهل كان اختيار كل من الأب والابن مجرد صدفة ؟ .